مجلة فصل الخطاب Journal of Faslo el-khitab
ISSN: 1071-2335/ E-ISSN: 2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 09، عدد رقم: 04، ديسمبر 2020، صص: 139- 156

تاريخ الاستلام (2020/10/15) تاريخ القبول (2020/11/12) تاريخ النشر (2020/12/25)

إجازات علماء الجزائر لابن زاكور الفاسي

Algerian Scholars' Authorizations to Ibn Zakur Al Fassi

شارف محمد
جامعة أدرار (الجزائر)، moh.charef@univ-adrar.edu.dz

ملخص:

كان لزيارة أبي عبد الله محمّد بن قاسم بن زاكور الفاسي إلى كلّ من الجزائر وتطوان أثر في تكوينه العلميّ، إذ التقى فيهما بأفاضل العلماء، وقد مدح بعضهم بقصائد، دوّنها في رحلته، كما أجازه بعضهم، سواء في الجزائر أو في تطوان، وكان البحث متمحوراً حول إجازات علماء الجزائر له، كالمانجلّاتي ومحمّد قدّورة ومحمّد الحسنيّ، وفق الإشكالية التّالية: ما هي ملامح التّبادل الثّقافي بين علماء الغرب الإسلاميّ على اعتبار رحلة ابن زاكور نموذجاً له؟ وللموضوع أهمّيّة علميّة، لأنّه يبحث في موضوع الإجازات المتبادلة بين علماء المغرب والجزائر في العهد العثمانيّ، لأنّ الزّيارات العلميّة كانت نشطة ومتبادلة، ومن النّتائج المتوصّل إليها أنّ ابن زاكور استفاد من زيارته للجزائر، لأنّه درس على علمائها وأجازوه، قبل التّوجّه إلى تطوان.

كلمات مفتاحية: رحلة؛ ابن زاكور؛ إجازة؛ الجزائر؛ علمية؛ تطوان.

المؤلف المرسل: شارف محمّد، الإيميل: moh.charef@univ-adrar.edu.dz

Abstract:

The visit of Abu Abdullah Mohammed Ibn Qassim Ibn Zakur Al-Fassi to Algeria and Tetouan had an impact on his scientific formation, as he met with some distinguished scholars whom, on his journey, he praised in his poems. The research is about Algerian scholars' authorizations, such as Al-Mengallati, Mohammed Kaddoura and Mohammed Al-Hassani, to Ibn Zakur Al Fassi. Considering Ibn Zakur's journey as a model, this research aims to answer this question: what are the aspects of cultural exchange among Islamic western scholars? This topic is of scientific importance, because it discusses the issue of mutual authorizations between the Moroccan and Algerian scholars during Ottoman period when the scientific visits were active and reciprocal. The findings reveal that Ibn Zakur benefited from his visit to Algeria since he had been taught by Algerian scholars and authorized by them.

Keywords:

visit, Ibn Zakur, authorization, Algeria, scientific, Tetouan

---

مقدمة:

اهتم أغلب علماء المغرب الإسلاميّ في العهد العثمانيّ بالعلوم الشرعية، من تفسير وقراءات وحديث وإجازة وعقيدة، وما يستتبع ذلك من علوم اللغة والنحو والبلاغة، كما أنّ مدينة الجزائر عرفت نشاطاً علميًّا؛ تجلّى في علاقات التّبادل العلميّ بين أقطار المغرب العربي، من خلال الرّحلات والزّيارات، وهذا ما نجده في رحلة ابن زاكور الفاسي، المسمّاة (نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان)، والتي دوّن فيها زيارته لكلّ من الجزائر وتطوان، والأخذ عن أكابر علماء البلدين، سيكون حديثنا في هذا البحث مقصوراً على إجازات علماء الجزائر، وهم: عمر المانجلّاتيّ محمّد بن عبد المؤمن الحسنيّ ومحمّد بن سعيد قدّورة، انطلاقا من ذلك جاءت الإشكالية كالتّالي:

ما هي ملامح التّبادل الثّقافي بين علماء الغرب الإسلاميّ على اعتبار رحلة ابن زاكور نموذجاً له؟

محاولةً للإجابة على الإشكالية المذكورة، يمكن الإشارة إلى الدّور الذي لعبته الرّحلات المتبادلة بين المغرب الأقصى والمغرب الأوسط، والتي منها على سبيل المثال رحلتا أبي العبّاس المقّريّ إلى مراكش وفاس، وعبد الرّزّاق ابن حمادوش إلى تطوان، فضلاً عن تواجد بعض أئمّة العلم المغاربة بالجزائر، كعليّ بن عبد الواحد الأنصاريّ، وعبد الرّحمن الجامعيّ،

وأحمد الورززيّ وغيرهم، وما الإجازات المذكورة في هذه المؤلّفات إلّا نموذج لهذا التّبادل الثّقافيّ.

وكان المنهج الوصفي معيناً لنا في هذا البحث الذي لم يكن الهدف منه تحليل الإجازات المذكورة بقدر ما هون عرض لنصوصها كنموذج من نماذج الإجازات العلميّة التي حفلت بها رحلات العلماء بين البلدين في العهد العثمانيّ.

2. الإجازة في اللّغة والاصطلاح

1.2 الإجازة في اللّغة:

يقول ابن فارس في مادة (جوز) : «الجيم والواو والزاء أصلان: أحدهما قطع الشيء، والآخر وَسَط الشيء... والجَوَازُ: الماء الذي يُسْقاهُ المالُ من الماشية والحَرْث، يقال منه استجزت فلاناً فأجازني، إذا أسْقاَكَ ماءً لِأَرْضِكَ أو ماشي»[1] بمعنى أن للإجازة في اللغة معنيين أولهما القطع، وثانيهما الوسط، كما أنها تشير إلى الماء الذي يسقي منه الناس لأنعامهم وأراضيهم.

وقد عرفت الإجازة في الشعر العربي مفهوما قريبا من السقي من مورد ما، بمعنى «أن ينظم الشاعر على شعر غيره في معناه ما يكون به تمامه وكماله، وقد يكون بين متعاصرين وغير متعاصرين، وهي مشتقة من الإجازة في السقي، يقال: أجاز فلان فلانا، إذا سقاه أو سقى له، فكأنهم شبهوا عمل الشاعر المجيز لعمل الشاعر المجاز شعره، بسقي الشخص للشخص»[2]، أي أن الشاعر ينظم قصيدة من القصائد، شرط أن تكون "متمة" لمعنى شعر سابق لغيره، ولا يشترط أن يكون الشاعران متعاصرَين، بل يشترط أن يكون الشعر في نفس المعنى السابق ومتما له في ذلك المعنى.

كما عرف السخاوي الإجازة بقوله: «وهي مصدر، وأصلها إجوازى، تحركت الواو وتوهم انفتاح ما قبلها، فانقلبت ألفا، وحذفت إحدى الألفين، إما الزائدة، أو الأصلية،... فصارت إجازة. وترد في كلام العرب للعبور والانتقال، وللإباحة القسيمة للوجوب والامتناع، وعليه ينطبق الاصطلاح، فإنها: إذن في الرواية لفظاً أو كتباً، تفيد الإخبار الإجمالي عرفاً»[3]

2.2 أضرب الإجازة

فقد قسم علماء الحديث الإجازة إلى أضرب هي كما يلي :

الضرب الأول: «أن يجيز معيّناً لمعين كأجزتك البخاري أو ما اشتملت عليه فهرستي»[4]، فالمعين الأول هنا هو صحيح البخاري، لأنه معلوم، والمعين الثاني هو طالب

الإجازة.

الضرب الثاني: «يجيز معينا غيره كأجزتك مسموعاتي»[5]

الضرب الثالث: «يجيز غير معين بوصف العموم»[6]، كأن يجيز بصيغة الجمع دون تعيين لشخص واحد أو فئة معلومة، بمعنى أن الإجازة هنا تكون شاملة غير خاضعة لحيز أو رقعة معينة.

الضرب الرابع: «إجازةٌ بمجهول أو له؛ كأجزتك كتاب السنن وهو يروي كتبا في السُّنن، أو أجزت لمحمد بن خالد الدمشقي، وهناك جماعة مشتركون في هذا الاسم فهي باطلة»[7]، بمعنى أن المادة المجازة هنا مجهولة (غير معينة تعيينا دقيقا) فكتب السنن مثلا كثيرة ومتنوعة، كما أن الإجازة هنا تكون لمجهول (مجاز غير معلوم على وجه الدقة).

الضرب الخامس: «الإجازة للمعلوم كأجزتك لمن يولد لفلان»[8]، فالمجاز هنا معلوم، مادام متعلقا بوالده.

الضرب السادس: «إجازة ما لم يتحمله المجيز بوجه ليرويه المجازُ إذا تحمله المجيز»[9]، وهذا الضرب يشير إلى أن المجيز في حد ذاته لم يسمع أو لم يتلق العلم الذي يود إجازة المجاز به، فكيف له أن يجيز ما لا يتحمل؟

الضرب السابع: «إجازة المجاز: كأجزتك مجازاتي، فمنعه بعض من لا يعتد به. والصحيح الذي عليه العمل جوازه»[10]، وهو أن يجيز الشيخ الطالبَ ما أجازه شيخه من قبل، فكأن الإجازة تنتقل من شيخ الشيخ إلى الطالب.

3.ابن زاكور حياته ومؤلفاته

1.3ترجمة ابن زاكور:

هو أبو عبد الله، محمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن زاكور الفاسي، من بيت آل زاكور المعروفين بفاس، وفي ذلك يقول صاحب زهر الآس: «ومنها فرقة الفقيه العلامة، المشارك في المعقول والمنقول، صاحب الطول في الفقه والحديث والأصول، المؤرخ، الحافظ للمختصرات والدواوين... أخذ بفاس عن جماعة من الأئمة، كسيدي عبد القادر الفاسي[11] وسيدي المهدي الفاسي[12] وأبي العباس أحمد بن الحاج[13] والقاضي بردلة[14] والقاضي القسمطيني[15] وسيدي الحسن اليوسي[16] وسيدي عبد السلام القادري[17]. وأخذ عن غيرهم بتطوان والجزائر»[18].

كما ذكره القادري بقوله: «العالم الذي شب في زمان الأدب بعد الهرم، وجدد أساس البلاغة بعد العدم، من ركضت في مضمار البلاغة صافنات جياده، وعقد شذور البلاغة على لبّات هذا العصر وأجياده. الجهبذ الأريب، المصقع الأديب، اللغوي المتفنن، الحافظ المشارك المتقن»[19].

ورغم ذلك فإن تاريخ مولده غير محدد، لكن يمكن حصره في فترة حكم المولى الرشيد الممتدة فيما بين (1075-1082هـ / 1664-1672م) في مرحلة عرفت استقرارا نسبيا[20]. وهذا ما ذكره محقق كتاب الجود بالموجود، مع أنه حصر عمر ابن زاكور من خلال الغلاف في الفترة (1075 – 1120)، وهو ما يؤكد أنه مهما كانت سنة مولد ابن زاكور فإنه لم يعمر طويلا، ومع ذلك فإن مؤلفاته توحي بسعة اطلاعه، رغم هذا العمر القصير. ومما يدل على ذلك أن تلميذه ابن الطيب العلميّ[21] قال في قصيدة لرثائه:

قضى أخو النظم والنثر ابن زاكور فجاد دمعي بمنظوم ومنثور

وامتدّ شوقي بمقصور الحياة له ما حيلتي بين ممدود ومقصور[22]

وفيما يخص طلبه العلم فمن المحتمل أن يكون ابن زاكور قد تلقى تعليمه الأول داخل أسرته مادامت بتلك الرفعة في مدينة فاس، إضافة إلى أن ذكاءه قد أسعفه في حفظ القرآن الكريم وبعض المتون العلمية المعروفة: كألفية ابن مالك، والآجرومية، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني في سن مبكرة، أما بخصوص الشعر فيمكن القول إن مترجمنا نظمه وهو في حداثة سنه «وقد تألق له ذلك بفضل كده واجتهاده، وحرصه الشديد على أخذ العلم من أفواه أشهر علماء عصره، وملازمة حلقات دروسهم، والارتواء من مختلف علومهم بشغف منقطع النظير»[23].

وقد ترك ديوانا سماه "ديوان الروض الأريض في بديع التوشيح ومنتقى القريض". الذي من المحتمل أن يكون قد طرق فيه بعض الأغراض الشعرية المعروفة من مدح ووصف ورثاء وغير ذلك.

2.3 شعره:

فقد وردت بعض القصائد لابن زاكور في رحلته، وهي في مجملها لا تخرج عن الحنين إلى فاس أو تطوان، أو مدح شيخ من الشيوخ الذين لقيهم سواء في فاس أو في تطوان أو في الجزائر، وما يستتبع ذلك من القصائد التي ضمت طلب الإجازة، ولا يستبعد أن تكون بعض بعض هذه القصائد ضمن الديوان المذكور، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها قوله في تطوان لما

نزل ضيفا لدى الحاج علي بن بركة، ذاكرا المنزه المسمى بالكيتان:

تطوان وما أدراك ما تطوان   سالت بها الأنهار والخلجان

قل إن لحاك مكابر في حبها   هي جنة فردوسها الكيتان

وقوله:

تطوان تطوان لا شيء يضاهيها   غنت بلابلها إذ سال واديها

والفجر والليل لولا بعض من فيها   لما نويت رحيلا عن مغانيها[24]

وقوله يتحسر على الأيام الخوالي:

واها لها من ليال هل تعود كما   كانت وأي ليال عاد ماضيها

لم أنسها مذ نأت عني بهجتها   وأي أنس من الأيام ينسيها

ويقول أيضا[25]:

قفا حدثاني عن مغان وأربع   بجزع النقا بين الهضاب فأنقع

فبانة جرعاء الحمى فظبائه   فآرامه اللاتي رتعن بأضلعي

وعن ذي حباب بالرياض مسلسل   يسيع كما انساب الحباب بأجرع

كما قال[26]:

يا دار من أهوى رعاك الله   وتفجرت برياضك الأمواه

وغدوت في حلل النضارة تزدهي   وهفا عليك من الصبا أنداه

ما كان آنق نزهة سلفت لنا   برباك إذ برق المنى شمناه

والدهر سالمنا وفل شباته   عن حربنا وأحبتي ما تاهوا

والأنس ينظم شملنا في سلكه   والوصل صافح يمننا يمناه

وقد مدح الشيخ الحاج علي بن محمد بركة بقوله:

إلى [ما][27] فؤادي يذوب زفيرا   لقد كدت أقضي معنى حسيرا

عراني من الوجد ما قد نفى   كراي وأذكى حشاي سعيرا

فمن رقة قد حكيت نسيما   ومن دنف قد حكيت نقيرا

وشيبني والشباب نضير   صدود الألى أودعوني زفيرا

إلى قوله[28]:

إمام تسربل بالمكرمات   وأرخى إزار العفاف كبيرا

وطاول بدر السماء منيرا   وساجل قطر الغمام غزيرا

وأضحى لكأس المعالي مديرا وأمسى لروض العلوم سميرا

تواضع حلما فزاد ارتقاء ورام خفاء فزاد ظهورا

كما أورد عبد الله كنون بعض القصائد والأبيات لابن زاكور ضمن مختاراته الشعرية التي ضمنها الجزء الثالث من كتاب "النبوغ المغربي"[29]، في بعض الأغراض؛ كالغزل والنسيب، والوصف، والمدح والاستعطاف، والرثاء، والموشحات، فمن غزله قوله[30]:

يا رعى الله ليال قد خلت كليال في سلوك من نضار

وعهودا سلفت لي بالحمى فسقى الوبل الحمى غير مضار

حيث لا هم ولا غم سوى رنة العود وكاسات تدار

....

مع ظباء كلف القلب بهم سمحوا بالوصل من بعد نفار

وقال في رثاء إحدى قريباته[31]:

سقى الرحمان قبرا ضم شخصا تسربل بالمكارم وارتداها

ونضر مضجعا لفتاة صدق حوى غرر الفضائل إذ حواها

لقد كانت تحض على المعالي وتندب للمكارم من أباها

2.3 مؤلّفاته:

1 - حاشية على الخزرجية، وتسمى: "النفحات الأرجية والنسمات البنفسجية بنشر ما راق من مقاصد الخزرجية".

2 - حاشية على قلائد العقيان للفتح ابن خاقان (ت 533هـ) في سفر: والمسماة "فرائد التبيان في شرح قلائد العقيان".

3 - شرح على حماسة أبي تمام في ثلاثة أسفار. المسمى: "عنوان النفاسة في شرح ديوان الحماسة".

4 - ديوان الروض الأريض في بديع التوشيح ومنتقى القريض.

5 - شرح على لامية العرب، المسمى: "تفريج الكرب عن قلوب أهل الأرب في معرفة لامية العرب"

6 - شرح على بديعية صفي الدين الحلي (ت 750هـ) : المسمى الصنيع البديع في شرح الحلية ذات البديع، يقصد بها "الكافية البديعية".

7 - شرح على قصيدة ابن مالك في المقصور والممدود: وعنوانه "الجود بالموجود من

دون ما بَذْلِ المجهود في شرح تحفة المودود في المقصور والممدود".

8 - أرجوزة في التوقيت وحساب أيام السنة:

9 - قصر المفعول على الفاعل والفاعل على المفعول.

10 - الحلة السيراء في حديث البراء (الرسائل إلى الملوك السبعة).

11 - الدرة المكنونة في تذييل الأرجوزة (أرجوزة ابن سينا في الطب) : وفي هذا الصدد نشير إلى أن ابن زاكور كان قد طلب قراءة أرجوزة ابن سينا من الشيخ أبي العباس أحمد بن إبراهيم العطار الأندلسي - الذي كان عالما بالطب وخبيرا برجز ابن سينا -، وذلك في قوله[32]:

ماذا على العطارلو أهدى لنا نفحاته من جونة الأرجوزة
وأباحنا أسرارها تلك التي هي لم تزل من دوننا محزوزة
وغصون روض الشكروهي نظرة ما [إن] تزال بذكره مهزوزة
لا أرتضي لكماله حاشاه أن تبقى المعارف عنده محزوزة

12 - معارج الوصول إلى سماوات الأصول.

13 - المعرب المعين عما تضمنه الأنيس المطرب وروضة النسرين.

4. الإجازة في رحلة ابن زاكور

1.4 ابن زاكور في مدينة الجزائر:

رحلة ابن زاكور أو "نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان"، هي رحلة قام بها ابن زاكور، من فاس إلى الجزائر ثم تطوان، وهي تشير من خلال العنوان إلى صفتها العلمية حيث التقى فيها صاحبها بعدد من المشائخ في كل من الجزائر وتطوان، ودرس عليهم أو أخذ عنهم، قبل أن يجيزه كل منهم، وهي مطبوعة ضمن ثلاث رحلات مغاربية، من تحقيق كل من مصطفى ضيف ومحفوظ بوكراع، ورغم أنها لا تتجاوز المائة صفحة (باستثناء الدراسة والمراجع) إلا أنها تكتسي أهمية بالغة في ترجمة الأعلام والشيوخ في كل من فاس والجزائر وتطوان في القرن السابع عشر، فهذا أبو عبد الله بن خليفة – على سبيل المثال- قد استقى كل من الحفناوي ونويهض ترجمته من خلال هذه الرحلة، كما تتضمن العديد من القصائد في المديح والاستعطاف والحنين والشوق، دون إغفال الشروح والردود والأجوبة المتبادلة بين أشياخ المؤلف حول بعض المسائل.

أما أهم موضوع تضمنته الرحلة فهو موضوع الإجازة، إذ أورد ابن زاكور جميع الإجازات التي أتحفه بها أكابر الأعيان في كل من الجزائر وتطوان بنصوصها الكاملة، وهي الموضوع الذي من أجله سقنا هذه الترجمة، ذلك أن ابن زاكور يذكر الظروف المتعلقة بكل إجازة من الإجازات، ومنها ذكر شيء من ترجمة المجيز، وصفاته، ودروسه، والكتب التي كان يقرؤها لطلبته، وغيرها من الملاحظات الهامة، بمعنى أن صاحب الرحلة كان شاهد عيان، من ذلك مثلا ما ذكره من كثرة تأخر المانجلاتي عن المجلس:

«وكان الشيخ –ﷺ- كثيرا ما يتأخر عن المجلس، لغرض عرض، من حفظ صحة، أو دفع ما يتوقع من مرض، فتأخر لأجل ذلك أياما، لم أذق فيها من الوجد مناما »[33].

وما ذكره من أحداث تاريخية كان أحد شهودها، فبعد وفاة شيخه أبي عبد الله بن خليفة، الذي كان ينتظر منه الإجازة، بدأ الهجوم الفرنسي على الجزائر [1094هـ / 1682م]، فيما يعرف بحملة الأميرال دوكين[34]. يقول ابن زاكور: «فاغبرّت لفقده تلك البلاد، ورميت على أثر ثكله بداهية نئاد، وزحف إليها الهول بالضحّ والريح، وغادر أهلها بين قتيل وجريح، ما كان إلا ريثما أنزلوه عن تلك الذرى، وأودعوه بطن الثرى، حتى التخّ أمرها، وغص بسفائن النصارى بحرها، فزلزلوا قصورهم النواضر، بصواعق أمثال القناطر... »[35].

وما يميز لغة ابن زاكور تلك السلاسة والخفة، بعيدا عن التعقيد والتصنع، كما خلت من الاستطرادات التي عادة ما تخرج الكاتب عن موضوعه، مع بعض الاقتباسات من القرآن الكريم والتراث العربي، يقول في مقدمته:

«إن أجمل ما حبّرت به أنفاس الأقلام نمارق الطروس، وأكمل ما أبرت به أنفاس الأعلام، حدائق الدروس، حمد عالم الغيب والشهادة، الملك القدوس، الذي ألبسنا من مطارف الأدب أجمل لبوس، وجعل في لقاء أكابر الأئمة من أعلام هذه الأمة ارتياح النفوس، وانزياح البوس، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الرسول الطاهر، العلم الظاهر، المصطفى من ذوي الفضل المحسوس، الذي يهرع إليه في شدائد اليوم العبوس، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين، وأصحابه الغر المحجلين، الرائضين من أفراس الدين كل شَموس، الباهرين بأنوار اليقين أشعة الشموس،...»[36].

بعد ذلك ينتقل المؤلف مباشرة إلى الحديث عن رحلته، والتي بدأها بدخوله مدينة الجزائر، ولقاء العلماء بها، وقد أعجب بها لدرجة أنه وصفها بقوله: «وإنّه لمّا منّ عليّ المولى الكريم، ذو الفضل السّابغ العظيم، بدخول مدينة الجزائر، ذات الجمال الباهر، وحلول

مغانيها النّواضر، التي غصّ ببهجتها كلّ عدوّ كافر، فلذلك يتربّصون بها الدّوائر، في الموارد والمصادر، ويرسلون عليها صواعق لم تعهد في الزّمن الغابر، أبرأني من غليلي ووجدي ما عاينته من روائها العسجديّ، وبحرها اللّازورديّ، إذ هي كما قيل:

بَلَدٌ أَعَارَتْهُ الْحَمَامَةُ طَوْقَهَا وَكَسَاهُ حُلَّةَ رِيشِهِ الطَّاوُوسُ[37] »[38]

2.4 إجازة عمر المانجلّاتي للمؤلّف

ترجمة المانجلاتي[39] :

يقول ابن زاكور: فممن أقبسني بكلتا يديه، وأجاز لي رواية ما لديه، العلم الأشهر، والحَبر الأكبر، حائز الشرفين: العرضي والذاتي، أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الرحمن المانجلاتي، أبقاه الله، ونضّر مرآه، هو بقية السلف، وبركة الخلف، الذي حمى الله به ذلك القطر من التلف، إذ عليه المدار، في السِّيَر والأخبار، وإليه المرجع، في كل خطب مفزع، وإحكامه لقواعد العلوم، هو الذي أمطاه قُنن النجوم، وأعطاه شرفا غير مروم، لأنه يصول بصول الأصول، ويطول على كل ذي منطَق، بذوابل الجدل وصوارم المنطِق، إلى شمائل؛ كنسمات الخمائل، وهمة، أكسبت الدهر غمة، وفصاحة رايقة؛ وبلاغة فائقة؛ إذا حدّث أو أملى، فما أبدع وما أحلى، وإن استطرد في درسه حكاية، لتنميق رواية، كان ذلك أعذب وأسوغ، من منادمة الظبي الألتغ:

يقود عصابات القلوب بيانه فلولا تقاه كنت أحسبه سحرا

على أنه دنا من أرذل العمر واقترب، وبات من وِردِ الثمانين عن قرب، فما ظنك به إذ بُرد عمره نضير، وبدر شبابه مستدير، وروض فتائه مورق، ونور ذكائه مونق، وقد أفصحتُ عن علاه، في قصيدة طرّزتها ببعض حلاه، وأنشدتها بين يديه، يوم ختمي "جمع الجوامع" عليه، وهو يوم السبت الرابع [4] من جمادى الأولى من شهور سنة أربع وتسعين وألف [1094هـ / 1682م] وهي هذه:

[مدح المؤلف لشيخه عمر بن محمد المانجلاتي]

حيّ على الأنس أن طيف الهموم سرى وسَلِّ نفسك وانهج نهج من صبرا
ولا تصخ لدواعي البثّ إن صدحت إنّ دواعيه تستجلب الضررا
واذكر معاهد قد راقت نضارتها فإن في ذكرها أُنْسًا ومعتبرا
لله منها أصيلان جنيت بها في روضة اللهو من نخل المنى ثمرا

إذا الأحبة يعدو عن وصالهم بُعْدٌ يؤَجّجُ في أحشائنا سقرا
حيث ائتلفنا ولا واش ينم بما نلنا عدا الأَعْطَرين الورد والزّهرا
ولا رقيب على الأفراح يحسدنا دان خلا النَّيرين الشمس والقمرا
وزَهْوُنا بتلاقينا وأُلْفَتِنَا أغرى بنا الأَعْجَمَيْنِ الطير والوترا
فصاح ذاك على أفنان دوحته حَيَّ على الأنس أن طيف الهموم سرى

إلى أن يقول:

هذا وجمع الجوامع الذي بهرت غُرُّمَعَانِيهِ من غاب وَمَنْ حضرا
أبدى لنا كل ما يحويه من نكت نفيسة تخجل الياقوت والدررا
وَهًا لها من لئال قد ظفرت بها فالحمد لله حمدا طيبا عطرا
سَحَتْ على قبرتاج الدين غادية تخفف الأثقلين الترب والحجرا
ولا تخطّت مُحَلِّيه باحلية باهى بها الثقلين الجن والبشرا
نعم المُحلّي مولانا المحلي إذ نَظَم مِن دُرّه ما كان منتثرا
يا رحمة الله عوجي بضريحهما ولا تزالي تُنْشي لهما خبرا
إن الإمام أبا حفص الرّضى عُمَرَا أضحى يطرّز ما حكى وما ابتكرا
بدر الجزائر صان الله بهجته عن أن يرى بخسوف البدرمستترا
وبحرها العذب لازالت جداوله تروض العالمين البدو والحضرا

نص إجازة المانجلاتي للمؤلف:

الحمد لله، وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما، ورضي الله عن الصحابة أجمعين، وعن التابعين وتابع التابعين إلى يوم الدين، وعن العلماء العاملين، ونفعنا الله بالكل آمين. وبعد: فقد اجتمعت بالشاب الأديب، الأريب الحاذق اللبيب، السيد محمد بن قاسم بن زاكور، مفتتح عام أربعة وتسعين وألف [1094هـ / 1682م]، وقرأ علي «جمع الجوامع» للإمام السبكي من حفظه، مع جماعة من الطلبة، فمكثنا في قراءته من أوله إلى آخره نحو أربعة أشهر، فرأيت من حرصه واعتنائه واشتغاله بما يعنيه ما أعجبني، وفيه قابلية لما يلقى إليه، مع ذهن ثاقب، وفهم صائب، ومشاركة في فنون من العلوم، وكانت قراءتنا «لجمع الجوامع» بإحضار شرّاحه كالمحلي[40].

وكنا نقرأ كثيرا منه باللفظ، وولي الدين العراقي[41]، والكوراني[42]، وحواشي، مع بعض شراح «مختصر» ابن الحاجب[43]، فَشُغِفَ بذلك وأعجبه، لحرصه على العلوم، فطلب مني أن أجيزه فامتنعت، لأني في نفسي لست من أهل هذا الشان، ولا من فرسان ذلك الميدان،

فألَحَ عليّ المرة بعد المرة، لظنه الجميل أني من هذا القبيل، فأسعفت طلبته حرصا على جبر خاطره، خشية من كسر قلبه، لأن كسر القلوب، في كسر القلوب، وجبرها في جبرها، فأجزته أن يروي عنّي ما رويته عن أشياخي من الفنون التي أسردها بشرطه المعتبر، عند أهل النظر، وكنت قرأت على مشايخَ جلّةٍ أعلام، ومن أجلِّهم عندي سيدي ومولاي الذي لازمته أربع عشرة سنة نهارا وليلا في غالب الأوقات:

3.4 إجازة محمّد بن عبد المؤمن الحسنيّ

ترجمة محمّد الحسني[44]:

يقول ابن زاكور: «ومنهم الفاضل العلّامة، الذي جُعل للمحاسن علامة فاعترف بفضله كلّ موقن، أبو عبد الله سيدي محمّد بن عبد المؤمن الحسني الجزائريّ، أتمّ الله نوره، وأدام سروره، بمنّه وفضله، غرّة مجد في جبين الجزائر ساطعة، ودرّة فضل في جيد المكارم لامعة، وبحر من السّماحة زاخر، أعي الأوائل والأواخر، رحل إلى المشرق مراراً، وانتجع للمعارف قطاراً، وحظي بصحبة شيوخ جلّة، أنهله كلّ واحد منهم وعله...»[45]

[نص إجازة أبي عبد الله محمد بن عبد المؤمن الحسني الجزائري للمؤلف]

الحمد لله الذي أجاز على العمل الحسن الصحيح المقبول أحسن إجازة، ووعد بوجادة ذلك يوم مناولة الكتاب باليمين، وعدا لا يخلف سبحانه إنجازه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا ضدّ ولا ندّله، شهادة يضحي بها العمل الموقوف مرفوعا، ويتصل بها ما كان مقطوعا، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وصفيه وخليله، المرفوع قدره على جميع الخلائق، المعنعن خبر نعته بأكمل الخلائق، ﷺ وعلى آله صلاة وسلاما يرفع بها كل معضل، ويهتدي بهما من جانب الصواب أو ضل.

وبعد، فإن العلم أشرف ما يتحلى به الإنسان، وأكمل وصف يتكمل به الأعيان، وقد ورد في فضل العلم والعلماء ما هو مقرر ومشهور، ومعروف بين أهله مذكور، وإن ممن ضرب فيه بنصيب وافر، وحصّل منه القدر المفيد الظاهر، الفقيه النبيه، العالم الوجيه اللوذعي الأوحد، جامع الفضائل التي لا تجحد، أبا عبد الله الشيخ محمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد بن زاكور الفاسي – حفظه الله وحرسه -، وبكل المبرّات والمسرّات آنسه، فإنه لما حلّ حضرة الجزائر، التي عمّ أمنها القاطن والزائر، قرأ معنا صدرا من كتاب «جمع الجوامع» للتاج السبكي، وبعضا من«تلخيص المفتاح» من باب الفصل والوصل، و«أرجوزة

ابن التلمساني» في الفرائض، ووقعت المشاركة بيننا وبينه في المسائل العلمية، والنوادر الأدبية، فألفيته سابق الحلبة، ودرّاك المسائل الصعبة، فالتمس مني أن أجيزه فيما قرأ معي، أو سمعه مني، فاعتذرت إليه من التقصير، والباع القصير، وعدم التأهل لأن أُجاز فضلا عن أجيز، ولست محسنا للإطناب ولا متمكنا من الكلام الوجيز، فلم يقبل مني ذلك، وصادف وقتا لم يمكني فيه إسعافه بإجادة ما هنالك، فأجزته بذلك على شرطه، المعتبر عند أهله، بإجازة الحافظ الشهير علامة مصر، وحافظ العصر، أبي الحسن الشيخ الشَّبرَامِّلِسي، عن الشيخ إبراهيم اللقاني، والشيخ عبد الرحمن اليمني، بروايتهما معا عن أبي النجاة الشيخ سالم السنهوري، عن الشيخ نجم الدين الغيطي، عن الشيخ زكريا عن ابن حجر بسنده المعروف، وبسند عال عن الشيخ علي المذكور، عن شيخ الفقهاء والمحدثين أحمد بن خليل السبكي، عن نجم الدين، عن الشيخ زكرياء، عن ابن حجر.

وكما أجازني أيضا العالم الماهر، العلم الظاهر، نزيل مدينة الرسول المطهر، ومدرس حَرَمِهِ المكرم المنور، أبو العباس الشيخ أحمد بن تاج الدين، عن شيخ الإسلام، بالبلد الحرام، جمال الدين الشيخ محمد بن علان الصديقي الشافعي، عن شيخ وقته شمس الدين محمد بن أحمد الرملي، عن الشيخ زكريا عن ابن حجر بسنده المتصل، وطرقه المعروفة إلى رسول الله ﷺ.

وكما أجزته أن يروي عني هذه المنظومة ويشرحها إن أمكنه أو من أهّله الله لذلك، وله الأجر التام، والفضل السابغ العام، وهذا أولها: [46]

....

الحمد لله قد أتمها كاتبها بحضرة كاتبه محمد بن محمد بن عبد المؤمن – وفقه الله بمنّه – في ضحى يوم الجمعة الثالث والعشرين [23] من جمادى الآخرة عام أربعة وتسعين وألف [1094هـ / 1682م]، انتهى.

4.4 إجازة محمّد بن سعيد قدّورة للمؤلّف

ترجمة محمّد قدّورة[47]

يقول المؤلّف: «ومنهم الإمام العلّامة المفتي أبو عبد الله سيدي محمّد بن الإمام الأكبر ذي الفضائل المشهورة، أبي عثمان سعيد بن إبراهيم عرف بقدّورة، أتمّ الله نوره، شيخ الفقه والحديث، ووارث الشّرف القديم والحديث، تفرّع من شجره علم، وتدرّع برود وقار وحلم، فمحلّه من الجزائر، محلّ السّواد من النّاظر، انتهت إليه خطابتها وفتياها،

وحصلت في بديه آخرتها ودنياها، فإليه يهرع عند اشتباه النّوازل، ويفزع عند اشتداد الزّلازل، وعليه يعتمد في رواية الآثار، وتصحيح أسانيد الأخبار»[48]

[إجازة أبي عبد الله محمد بن سعيد بن إبراهيم قدورة للمؤلف]

الحمد الله [كذا]، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، قد أجبت الفقيه النبيل الأصيل، المقتني ذخائر نفيس العلوم، ونفيس ذخائر الفهوم، بالغدو والأصيل، المحصّل لخصال الكمالات كل التحصيل، حائز قصبات السبق في ميادين البلاغة على الإجمال والتفصيل، العلامة النحرير السيد [أبا] عبد الله محمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد الفاسي المعروف بابن زاكور، كان الله لنا وله دنيا وأخرى، وأجزته إجازة مطلقة تامة عامة على شروطها المتعارفة عند العلماء القائلين بها في جميع مقروءاتي معقولا ومنقولا، توحيدا ونحوا، فليحدث بذلك إن أحب عن أشياخي وأشياخهم إلى المؤلفين، نفعني الله وإياه بهم آمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله أجمعين، وكتب العبد الفقير إلى الله شاكره دائما على ما أسداه وأولاه: محمد بن سعيد بن إبراهيم بن حمودة الجزائري، وفقه الله لما يحبه ويرضاه، أوائل رجب سنة أربع وتسعين بعد الألف [1094هـ / 1682م] انتهت.

5. خاتمة:

هذه بعض الإجازات التي حصل عليها ابن زاكور من ثلاثة أعلام جزائريّين، وقد حصل على إجازات من غيرهم، سواء في الجزائر أو في تطوان، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ الرحلات التي كان يقوم بها العلماء والأدباء كانت مرتبطة بطلبهم للعلم الشّرعيّ وما يتّصل به، وذلك عن طريق ملازمة الشّيوخ والأخذ عنهم، وكان الرّحالون كغيرهم من طلبة العلم حريصين على طلب الإجازة من الشّيوخ، لما لها من أهمّيّة كونها شهادة على الأخذ الفعليّ للعلوم والمعارف المدوّنة فيها.

وقد حفلت رحلة "ابن زاكور الفاسي" المسمّاة "نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان" بالعديد من النّماذج للإجازات العلميّة الجزائريّة والمغربيّة، كما كان صاحبها حريصاً على ذكر شيوخه، ومدحهم بقصائد أثبتها في رحلته، كما دوّن بعض ما رآه ومرّ به في كلّ من مدينتي الجزائر وتطوان.

ومن آفاق البحث المرجوّة الاهتمام بالنّصوص الرحليّة المغاربيّة، باعتبارها نموذجاً للعلاقات الثّقافيّة والاجتماعيّة بين علماء الأقطار المغاربيّة، وحتّى تلك الرحلات الحجازيّة التي تصوّر التّبادل العلميّ والثّقافيّ بين المشرق والمغرب.

مراجع البحث وإحالاته:

1 - ابن فارس، أبو الحسن أحمد. مقاييس اللغة. ت: عبد السلام محمد هارون. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. 1979. 494/1.

2 - ابن ظافر. جمال الدين أبو الحسن. بدائع البدائه. تح: مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية. بيروت. ط1. 2007. ص: 42.

3 - السخاوي، فتح المغيث بشرح ألفيّة الحديث، تح: عبد الكريم بن عبد الله الخضير، محمّد بن عبد الله فهيد، مكتبة دار المنهاج للنّشر والتّوزيع، الرّياض، ط1، 1426هـ، ج2، ص: 389.

4 - السيوطي، جلال الدّين، تدريب الراوي في شرح تقريب النّواوي، تح: نظر محمّد الفاريابيّ، مكتبة الكوثر، الرّياض، ط2، 1415هـ، ص: 447 - 448.

5 - المصدر نفسه ص: 451.

6 - المصدر نفسه، ص: 451.

7 - المصدر نفسه، ص: 454.

8 - المصدر نفسه، ص: 457.

9 - المصدر نفسه، ص: 461.

10 - المصدر نفسه، ص: 462-463.

11 - (1007هـ – 1091هـ) ترجم له كل من: المحبي: خلاصة الأثر: 444/2. القادري: نشر المثاني: 270/2. نشر أزاهر البستان: 103. الناصري. الاستقصا: 108/7. اللإفراني. صفوة من انتشر: 310. داود، محمد. تاريخ تطوان: 416/1.

12 - أبو عيسى محمّد المهدي بن أحمد بن علي بن أبي المحاسن يوسف الفاسي، المتوفّى (1109هـ/ 1697م).

13 - أحد شيوخ علي رين محمّد بركة الأندلسي، وصفه ابن زاكور بـ «الفقيه اللّوذعيّ، النّبيه الألمعيّ، المحرز قصب السّبق في جميع الفنون، والفائز بالحظّ الوافر من سائر المتون، الحائز لدرجة الظّهور لدى المناظرة والتّحاج» (ابن زاكور، الرّحلة، ص: 109-110).

14 - أبو محمّد العربي بن أحمد بردلة المتوفّى سنة (1133هـ/ 1720م).

15 - أبو عبد الله محمّد بن أحمد القسنطيني المتوفّي سنة (1116هـ / 1704م).

16 - أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي، نسبة لقبيلة آيت يوسي البربرية، كان يتردد على تطوان من وقت لآخر. له قصيدة في مدحها. ذكرها محمد داود في تاريخ تطوان: 413/1. وهو من تلاميذ الزاوية الدلائية. حيث ترجم له. محمد حجي: ص: 104. من مؤلفاته: الرسائل، المحاضرات، القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأ حكام المتعلم. ترجمته في: القادري. نشر المثاني: 25/3. التقاط الدرر: 258. صفوة من انتشر: 205. الكتاني. سلوة الأنفاس: 361/3. المراكشي. الإعلام: 154/3.كنون. النبوغ المغربي: 295/1.

17 - عبد السّلام القادريّ الحسنيّ المتوفّي سنة (1110هـ / 1698م).

18 - الكتاني، عبد الكبير. زهر الآس في بيوتات أهل فاس. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء. ط1. 2002. ص: 459.

19 - القادري. نشر المثاني: 201/3.

20 - عن فترة تولي مولاي الرشيد ومولاي اسماعيل ينظر. الاستقصا للناصري ج7.

21 - هو تلميذ ابن زاكور. له كتاب الأنيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب. ولد بفاس. وتوفي بمصر سنة 1134. ترجمته في ذكريات مشاهير رجال المغرب: 1303.

22 - البيتان في: ذكريات مشاهير رجل المغرب لكنون: 1269.

23 - ابن زاكور، نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان، تح: كصطفى ضيف، محمود بوكراع، المعرفة الدّوليّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2007، مقدمة المحقق. ص: 17.

24 - الأبيات الأربعة في: نشر أزاهر البستان: 79.

25 - البيتان والقصيدة في: نشر أزاهر البستان: 80-81.

26 - ينظر تمام القصيدة في: نشر أزاهر البستان: 81-82.

27 - كذا. وقد وردت في ذكريات مشاهير رجال المغرب لكنون دون ألف، ينظر كنون: ذكريات. ص: 1284 وما بعدها.

28 - نشر أزاهر البستان: 84-85-86.

29 - كما أنه جمع بعض أشعار ابن زاكور في كتاب سماه "المنتخب من شعر ابن زاكور". طبعة دار المعارف.

30 - كنون عبد الله، النبوغ المغربي في الأدب العربيّ، ط2، 1380هـ، ج3، ص: 708.

31 - النبوغ المغربي: 907/3

32 - الشيخ العطار من أهل العلم والاجتهاد، عرض عليه القضاء بمراكش فامتنع. ترجمته في صفوة من انتشر: 354. والإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام: 326/2. والأبيات الأربعة في كليهما.

33 - ابن زاكور، نشر أزاهر البستان: 44.

34 - عن الحملة، ينظر: مقدمة نشر أزاهر البستان: 30. والجيلالي عبد الرحمن. تاريخ الجزائر العام: 192/3.

35 - نشر أزاهر البستان: 74-75.

36 - مقدمة الرحلة: 39.

37 - البيت لابن اللّبّانة في وصف جزيرة "ميورقة" ينظر: ابن اللّبّانة الدّانيّ، الدّيوان، مجموع شعره، تح: محمّد مجيد السّعيد، دار الرّاية للنّشر والتّوزيع، عمّان، ط2، 2008، ص: 76. كما ذكره الغرناطيّ في المغرب، 380/2 – وأرسلان في الحلل السّندسيّة، 141/1 – وإسماعيل أبو الفداء في تقويم البلدان، ص: 191 – ولسان الدّين في خطرة الطّيف، ص: 107...

38 - نشر أزاهر البستان: 40.

39 - نشر أزاهر البستان: 41. ومنه أخذ الحفناوي في تعريف الخلف: 295/2. ينظر أيضا: معجم أعلام الجزائر: 318.

40 - (791-864هـ – 1389-1459م) محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أحمد بن هاشم المحلي، المصري، الشافعي (جلال الدين)، مفسر، فقيه، متكلم، أصولي، نحوي، منطقي. ولد بالقاهرة، ونشأ بها، وبها توفي مستهل 864هـ. من تصانيفه: مختصر التنبيه للشيرازي في فروع الفقه الشافعي، شرح جمع الجوامع للسبكي في أصول الفقه، شرح تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك في النحو، شرح الشمسية في المنطق لم يكمل، وتفسير القرآن بالإشتراك مع جلال الدين السيوطي، كنز الراغبين، شرح منهاج الطالبين، شرح الورقات لإمام الحرمين. كحالة عمر رضا، معجم المؤلفين. ص: 93. ابن القاضي. درة الحجال: 244/2.

41 - هو أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن أبو زرعة ولي الدين العراقي ت: سنة 826هـ.

42 - أحمد بن إسماعيل بن عثمان بن أحمد بن رشيد بن إبراهيم شرف الدين ثم دعى الدين الشهرزوري الهمداني التبريزي ثم القاهري عالم بلاد الروم... ولد في سنة ثلاث عشرة وثمانمائة بقرية من كوران.... قال المقريزي: وقرأت عليه صحيح مسلم والشاطبية فبلوت منه براعة

وفصاحة ومعرفة تامة لفنون من العلم ما بين فقه وعربية.... مات أواخر رجب سنة ثلاث وتسعين (893). (السخاوي: الضوء اللامع: 241/1. والمقريزي: درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة. ت: محمود الجليلي، 259/1)

43 - هو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس الرويني ثم المصري ثم الدمشقي ثم الإسكندري يكنى أبا عمر المعروف بابن الحاجب جمال الدين الإمام العلامة الفقيه المالكي، توفي سنة 646هـ. (هامش ص: 46. من رحلة ابن زاكور).

44 - ترجمته في تعريف الخلف، 424/2.

45 - نشر أزاهر البستان، ص: 49-50.

46 - أورد محمد بن عبد المؤمن أرجوزة من حوالي 79 بيتا، في العقائد والعبادات.>

47 - أبو عبد الله، محمّد بن سعيد بن ابراهيم قدّورة، من أكابر علماء مدينة الجزائر، انتهت إليه خطابتها وفتياها، ذكره الحفناوي في تعريف الخلف، ووصفه بـ «شيخ الفقه، ووارث الشّرف القديم والحديث، عليه يعتمد في رواية الآثار، وتصحيح أسانيد الأخبار» وذكر ابن المفتي في تقييداته أنّ والده سعيداً قدّمه للفتوى والخطابة والتّدريس، توفّي سنة 1107هـ / 1695م، (ترجمته في تعريف الخلف، 382/2 – ابن المفتي، تقييدات، ص: 99 – نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 259)

48 - نشر أزاهر البستان، ص: 69.